مذاقات الحب
قراءة في نص ابن عربي

سعاد الحكيم

في عالم يُستسهل فيه التباغض، ويُنظَّر للتحاسد والتخاصم والتفارق، وتتضخم الأنانية بحيث تسدّ أفق الرؤية، وتلتبس الشهوة والرغبة بالحب والعشق، يصبح الكلام على الحب ملحاً، لتميز طيّبه وطَلَب أرقاه وأطيَبه.

نتلفت حولنا فنرى العديد من الناس ينطقون بكلمة حب، وتصل أسماعنا عباراتهم من أمثال: «أحبك»، «لا أستطيع العيش بدونك»، «أنت وحدك ولا أحد»، «إنك تسكنني ـ أو إنكِ تسكنينني»، «إنكَ تجري أو إنكِ تجرين في عروقي».. إلى آخر هذه الإشهادات على الذات التي تجري على ألسنة المحبين وتصدّقها أعمالهم وأحوالهم أو تكذّبها.

في المقابل، كثيراً ما يتشكك المحبوب بحب محبّه، أو يصاب بخيبة أمل لأنه ينتظر نوعاً آخر من الحب غير المُعطى، وتتوالى عبارات من أمثال: «هل تحبني حقاً»، «أنت لا تحبني»، «كنت أظن أنك تحبني»..

هذا التشكيك بين المتحابين بعد البوح بميل القلب، واختلاف خطاب المحبين، يدفعنا إلى القول بأن الناس لا يتحابون بحب واحد، بل بصيغ متنوعة. ونتساءل: هل أنواع الحب متوازية أم متراتبة؟ هل تخضع للعدّ والحصر أم أنها بعدد المحبين، فكلما أحب إنسان أبدع نوعاً لا يتذوّقه غيره؟ هل أنواع الحب كحروف اللغة، معدودة في الأصل ويتألف منها عدد لامتناه بالتركيب، يؤلف كلُّ محبٍّ منها كلمتَه المتفرّدة؟

للإجابة على هذه التساؤلات حول الحب الإنساني، ولإزالة اللبس من شبكة علاقات الحب القائمة بين الناس اليوم، أرجع إلى تجارب أساتذة في الحب، هم عشاق الصوفية. ورجوعي إلى الصوفية منطقي، لأن العاشق الإلهي عندما تذوّق الحب المطلق الذي يجمّل كلّ مقيّد، أصبح عارفاً بأودية العشق الإنساني، إنه خبير بالعشقين، متذوق للكأسين، سواءً ظلاً على قطيعتهما أم تداخلا.

وأقسم كلامي على فقرتين: في الأولى، أتكلم على حب المتصوفة قبل القرن السادس الهجري. وفي الثانية، اختار شخص **محي الدين بن عربي** ونصوصه للكلام على أنواع الحب الإنساني ومراتبه.

1 ـ عشق المتصوّفة قبل القرن السادس الهجري

لا نكاد نلمح طيف امرأة يسري فوق حروف عشّاق المتصوفة قبل القرن السادس الهجري، فهل كانت المرأة غائبة من وجدان الصوفي وتجربته لأنه مشغول عنها بالله؟ أم كانت هي رفيقة العشق لا المعشوقة، وخاصّة أن كثيرات من نساء المتصوفين الكبار كنّ شريكاتٍ لأزواجهنّ في الطريق إلى الله، كزوجة **الحكيم الترمذي** شريكته في ولايته، وزوجة **ابن خَضْرَويه** التي شهد لها **البسطامي** بالفتوّة؟ أم تُرى أنّ العاشق الصّوفي أخفى باتقان ملامح معشوقه الإنساني تحت إزار المطلق؟ أم أنّه عند كشْف الحُجُب فارَ الإكسيرُ فدُهش العاشق واحتار من رؤية الجمال المطلق في حسن مقيّد، فخاطبه من خلف الصّور بالرّمز والإشارة؟

ونسلّم جدلاً لمتصوّفة القرون الستّة الأولى، ونقبل قولهم إنّ نصوصهم كلّها في الله المنزّه عن صور الكائنات؛ لننظرْ في هذه النصوص ونرى مذاقات الحبّ عندهم. كيف يعشقون؟ ما هي شروط عشقهم لله وآثاره؟ هل يتناقض حبّهم لله مع حبّهم لإنسان، أم يستوعبه؟ ما هي نهاية طريق الحبّ؟ ونحصر معارفنا بهذه النصوص في نقاط خمس نتكلّم عليها بإيجاز؛ هي: الحبّ والجسد، الحبّ والإرتواء، الحبّ والموت، الحبّ وتوحيد المحبوب، الحب والعرفان.

1 ـ الحبّ والجسد

جسد الصّوفي هو لغته مع الله ومع الناس، لذا عندما يعشق يتفتّح العشق على ظاهر جلده كما تتفتّح زهرة «نينوفار» على صفحة الماء... وها هو **سري السقطي** (ت 253هـ)، خال الجنيد وأستاذه، ينشد شعراً:

إذا ما شكوت الحبّ، قالت: كذبتني
فما لي أرى الأعضاءَ منك كواسيا؟
فلا حبّ حتّى يُلصق الجلد بالحشا
وتُذهل حتّى ما تجيب المناديا

أما **الجنيد البغدادي**، شيخ الطّائفة، فقد أوصله الحبّ بعفويّته وصدقه ودون تعلّم إلى تقنيّة عالية من تقنيّات الذكر الإلهي.. وهو الذكر المصاحب لحركة التنفّس والساري مع الرّوح في مجاريها. يقول:

وما تنفّست إلاّ كنت مع نفسي
تجري بك الروح منّي في مجاريها

والشبلي، صديق **الجنيد والحلاج** معاً على تخاصمهما وتفارقهما، لم يفن في التوحيد ولم يطلب اتحاداً بمعشوقه المنزّه، بل داخله معشوقه وتخلّله حتّى استحقّ اسم الخليل لخليله.. ويقول شعراً:

قد تخلّلت مسلك الرّوح منّي
ولذا سمّي الخليل خليلا
فإذا ما نطقت كنت حديثي
وإذا ما سكتُّ كنت غليلا

2 ـ الحبّ والإرتواء

ننظر في تجارب العشّاق حولنا وقبلنا فنرى بدايات العشق، شوقاً واشتياقاً ولا ارتواء، وبعد القرب والوصال تبرد حرارة التوق ويرتوي العاشق من معشوقه، بعد أن كان يظنّ أنه لن يرتوي. وقد كشف الصوفية عن حبّ لا يعرف الرواء، هل لأنّ محبوبهم يعلو على الامتلاك والاستهلاك، متجدّد الحسن لا يصحو صبّه من السكر به، ولا يطفىء صبابتَه الوصالُ، بل كلّما ازداد العاشق شرباً من نهر القرْب كلما تذوّق نوعاً جديداً غير معهود من المشاعر وازداد عطشاً لما هو أبعد وأعلى.. يربط **الشبلي** بين الحبّ والسّكر، بل يذهب إلى جعل السّكر علامة على الصبابة والحبّ.. فيقول:

إن المحبّة للرحمن تُسكرني
وهل رأيتَ محبّاً غيرَ سكران؟!

وأبو يزيد البسطامي، الذي وضع قدمه في أرض عشق عذراء.. يقول:

شربت الحبّ كأساً من بعد كأس
فما نفد الشرابُ وما رُويتُ

وشيخ أهل مصر، **ذو النون**، يجد أنّ صبابته للحقّ تخترق برزخيّة العوالم لأنها لم تعد تنتمي إلى عالم النفس بل رَقَتْ لتطبع الروح الخالدة.. فيقول:

أموت وما ماتت إليك صبابتي
ولا رُويت من صدق حبّك أوطاري

3 ـ الحب والموت

لا يقف مدُّ الحبّ عند شاطىء بَدَن العاشق بل يمدّ يده إلى خزائن الروح، بحيث يصبح موت المحبّ بمحبوبه هو العلامة التي يعلن بها الصوفي العاشق فناء نفسه عن نفسه وولادته في معشوقه. فالحبّ هو دخول صفات المحبوب على البَدَل من صفات المحبّ، بل لا يكمل الحبّ حتّى يقول المحبّ لمحبوبه: يا أنا.. وهذا يفتح نافذة للمقارنة بين العشق الصوفي والعشق العذري في تاريخ الحبّ عند العرب.

يقول سلطان العاشقين، **عمر بن الفارض**، المعاصر **لابن عربي**، والمأخوذ بمحبوبه عن العصر وعن الكلّ:

ما بين معترَكِ الأحداق والمهج
أنا القتيلُ بلا إثْم ولا حَرَجِ
ودّعت قبل الهوى روحي، لما نَظَرت
عيناي من حسن ذاك المنظر البَهجِ
وخذ بقيةَ ما أبقيتَ من رَمَق
لا خير في الحبّ إنْ أبقى على المُهج

كما يقول مخاطباً من أنَسَ في نفسه رغبةً بالنار المقدّسة وتطلع إلى جانب الطور:

فإن شئت أن تحيا سعيداً فَمُتْ به
شهيداً، وإلاّ فالغرام له أهل

وأسد الصوفيّة، **الحلاج**، يردّد كثيراً هذه الأبيات:

سقوني وقالوا لا تغنّ، ولا سقوا
جبال حنين ما سقوني لغنّتِ
تمنّت سليمى أن نموت بحبها
وأسهل شيء عندنا ما تمنّتِ

ويقول **أبو سعيد الخرّاز**:

فأجسامهم في الأرض قتلى بحبّه
وأرواحُهم في الحجب نحو العُلا تسري

4 ـ الحبّ وتوحيد المحبوب

خاف الصوفية كثيراً من غيرة محبوبهم الإلهي فوحّدوه في العشق بشكلين مختلفين: رأينا ـ من جهة ـ الموحّد الذي يسلك درب توحيد محبوبه بصون قلبه عن حبّ ما سواه، فيجتزّ من أرض القلب أصلَ نبتِ الحبّ حتّى لو كان هذا السوى هو ولده أو أهله.. ثمّ، من جهة ثانية، رأينا ذاك الذي يوحّده بأن يراه عين كلّ محبوب من الكائنات، ويشهده في التماع حسن كلّ جميل.

والشّكل الأول من توحيد المحبوب غلب على التجربة الصوفيّة قبل القرن السادس الهجري. وكثيرة هي التعاليم الصوفيّة في صيغة قصصية التي تحذّر من

الإشراك في الحبّ، فمساحة القلب وقف على الواحد، وإن صَدَف وتسلّل دخيل إلى قلب المحبّ فالويل للمشرك وللشريك، إذ كثيراً ما تقتل غيرةُ المحبوب الشريك، وتطرد المحبّ من جنّة صفو المحبّة وتبدي الهجران..

يقول **الجنيد** مشيراً إلى غياب الثالث وحضوره:

ما لي جفيت وكنت لا أجفى
ودلائل الهجران لا تخفى
وأراك تسقيني وتمزجني
ولقد عهدتك شاربي صِرْفا

أما الشكل الثاني من توحيد المحبوب فهو الغالب على التجربة الصوفيّة بعد القرن السادس الهجري، وتمثّل بوضوح في نصوص **ابن عربي** و**ابن الفارض** و**عبد الكريم الجيلي**.. يقول ابن الفارش موضّحاً أن جمال معشوقه ذاتيٌّ وأصيل، وكلّ جمال غيره فهو مُعارٌ من جماله:

فكل مليح حُسْنُه من جمالها
مُعارٌ له، بل حُسْنُ كلّ مليحه

ولنا وقفة في القسم الثاني من هذا البحث مع ابن عربي ومدرسته بخصوص الشكل الثاني من توحيد المحبوب.

5 ـ الحبّ والعرفان

أرسى الصوفية معالم طريق للعرفان يغاير الاستنباط والاستدلال والاستقراء، إنه طريق الحبّ.. وأجدني أدعم منطقياً هذا الطريق، وأدلّل عليه من خبراتنا الإنسانية المعيوشة، فمن عشق إنساناً وامتلأ به، أدام النظر إليه وجعله مشهوده في كلّ وقت، ومن رؤية المحبوب في أحواله شتّى يحدث العرفان به. كذلك عندما يحتلّ المعشوق المنزّه مساحة عاشقه ويصبح روحاً لروحه، يتبدل الوجود الأول بوجودٍ جديد ويمسي العاشق هو العارف؛ والأمثلة كثيرة، نكتفي منها بقول **الحلاّج**:

لم يبق في القلب والأحشاء جارحة
إلا وأعرفه فيها ويعرفني

خاتمة القسم الأول:

أقف عند نهايات القرن السادس الهجري لأقول إن السيدة رابعة، ومن بدايات نشأة التصوف كنهج مخصوص في حقل العلوم الإسلامية، أجملت ما تفصّل كله تقريباً بين هذين الزمنين.. فلم يكد يخرج أحد عن الحبين اللذين ذكرتهما في شعرها وهما: حب الهوى وحب التقوى.. ويتجلّى الأول على مستوى المشاعر والعاطفة والثاني على مستوى الطاعة والعمل، ولكل منهما علامة. تقول:

أحبك حُبين: حبُّ الهوى
وحباً لأنك أهلٌ لذاكَ
فأما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عمّن سواكَ
وأمّا الذي أنت أهلٌ له
فكشفُك للحجب حتّى أراك
ولا الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمد في ذا وذاك

II ـ مذاقات الحب عند ابن عربي

أقول، إن الحبّ هو واحد من الأشكال العديدة التي تتجلّى بها الكينونة البشرية لإنسان، أي أن الحب هو مظهر للجوانية ورَشْحٌ للوجود، شاء المحب ذلك أم أبى.. لذا، بالحب تتكشف مخبوءات الأسرار وتنزاح الأستار وتتعرى الذات، فنرى القويّ والضعيف، والوفي والخائن، والتابع والمتبوع، والأنانيّ والمِعطاء، والماديّ والروحانيّ... الحبُّ كالسَفَر يسفر عن أخلاق المتحابين، يُفَرِّدُهما يُفاعِلُهما، يصادم مشروعهما الإنساني، فَيُكشف أحدهُما للآخر ولنفسه.

ونلتفت إلى شيخ جليل، أحبّ الله وأحبّ الناس، أحبّ نساءً وأحبّ إمرأةً.. دان بدين الحبّ فرآه سبب الوجود وقيوميّته وخاتمته.. إنّه **محي الدين ابن عربي**.

ونترافق معاً لندخل هذه الكينونة التي اتسعت الوجود بأسره محبّة وتفهّماً.. ونرى ما هو الحبّ عنده، وما هي أحكامه وأنواعه، وهل يختلف الحبّ الإلّهي عن الحبّ الإنساني بالنوع أم بالجنس، وهل نحبّ الله ولماذا نحبّه، وهل يحبّنا الله ولماذا؟ وللإجابة على هذه الأسئلة أقسم الكلام إلى فقرات خمس هي: تعريف الحب، أحكام الحبّ، حبّ الإنسان للإنسان، حبّ الإنسان لله، حبّ الله للإنسان.

1 ـ تعريف الحبّ

لا يتصوّر **ابن عربي** أن يستطيع أحدٌ تعريف الحبّ بالحدّ الذاتي، فما حدُّه من حدّه إلاّ بنتائجه وآثاره ولوازمه. ولا سيّما أن الله تعالى اتّصف به وتسمّى بالودود. فالمحبّة يعرفها من قامت به ومن كانت صفتَه، ولا ينكر وجودَها ولكن لا يعرف ما هي (الفتوحات 2/ 325). وإذا تجاوزنا عن تعريف الحبّ واكتفينا بأنّه صفة المحبّ، فهل هي صفة معنى فيه

يمكن أن تزول، أم أنها صفة نفسيّة له لا تزول إلاّ بزواله؟ هنا يبدع **ابن عربي** عندما يرى أنّ الحبّ هو عين الحبّ، وكلّ إنسان ـ في الواقع ـ محبّ، إذن الحبّ هو عين كلّ إنسان، وبكلام آخر، إن استعرنا تعابير **أرسطو**، الإنسان حيوان محبّ.

ويجاوب **ابن عربي** من يقول بزوال الحبّ، بأنّه من المحال زوال صفة الحبّ عن مطلق إنسان، إنما الذي يعقل زواله هو تلك العلاقة بذلك المحبوب المعيّن، وتتعلّق بمحبوب آخر. فالحبّ هو نفس المحبّ وعينه (ف 2/ 332).

كلّ واحد منّا ـ إذن ـ محبّ، بغضّ النظر عن موضوع حبّه، وحتّى نتحقّق من ذلك يكفي أن ننظر إلى إرادتنا ونتفحّص حركة تعلّقاتها، لأنّ الحبّ هو تحرّك الإرادة لتتعلّق بأمر مخصوص.

ويؤكّد **ابن عربي** أن تعلّق الإرادة هذا لا بدّ أن يكون بمعدوم، تتعلّق إرادتنا بمعدوم لإيجاده.. من هنا علاقة الحبّ بالخلق والإيجاد. وقد يخيّل إلينا أن حبّنا متعلّق بموجودٍ عندما نرى أنّنا نحبّ شخصاً معيّناً، ولكن الواقع هو أن حبّنا لم يتعلّق بالشخص في شخصيّته، بل بمجالسته أو تقبيله أو عناقه، فهذا هو محبوبنا على الحقيقة، وهو معدوم ونريد حصوله. ثم إنْ حدث ما تعلّقت به إرادتنا من تقبيل وعناق، يتعلّق حبّنا بدوام الحاصل واستمراره، والدّوام والاستمرار معدوم (ف 2/ 327).

فعندما جعل **ابن عربي** المحبوب معدوماً، أكّد على الجانب الإيجادي للحبّ.. فالحبّ سبب الوجود.

2 ـ أحكام الحبّ

عندما تتعلق حقاً إرادة إنسان بمحبوب يُحكم عليه الحب، فيعطّل إعقالَه عن كل شيء خارجَ دائرة هذا المحبوب.. ويفصّل **ابن عربي** أحكام الحبّ، في الفتوحات (ج 2، ص ص 325 ـ 326)، بقوله إن كل حب يحكم على صاحبه بحيث يصمّه عن كل مسموح سوى ما يسمع من كلام محبوب، ويعميه عن كل منظور سوى وجه محبوبه، ويخرسه عن كل كلام إلا عن ذكر محبوبه؛ ثم يختم على قلبه فلا يدخل فيه سوى حب محبوبه ويرمي قِفْلَه على خزانة خياله فلا يتخيّل سوى صورة محبوبه... فبه يسمع وله يسمع، وبه يبصر وله يبصر، وبه يتكلم وله يتكلم. وكلّ حب يُبقي في المحب عقلاً يعقل به عن غير محبوبه فليس بحب خالص. نستخلص من فتوحات **ابن عربي** أن للحب أحكاماً، أي سلطاناً وفعلاً وتأثيراً في المحب؛ وهي ليست واحدة في كل محب.

هذه الأحكام التي ذكرنا هي للحب الخالص، ولكن هل كل حب هو خالص!؟ وهل كل محب مستغرق بمحبوبه كما صوّر **ابن عربي** في الفقرة السابقة؟ الجواب هو النفي، لأن آثار الحب وأحكامه تتنوع بتنوّع أنواعه، لكل حب أحكام.. وهذا يوصلنا إلى الفقرة الثالثة التي نتكلم فيها على أنواع حب الإنسان للإنسان.

3 ـ حب الإنسان للإنسان

عندما ينظر الإنسان إلى نفسه وإلى العالم وإلى خالقه، يجد ـ بحسب رؤية **ابن عربي** ـ أنه مخلوط تولّد من تزاوج الروح الكلي والطبيعة الكلية؛ فالروح أبوه والطبيعة أمه. وككل مولود يتولد عن أبوين. فالإنسان يجمع أبويه في ثنايا تكوينه، إنه ـ إذن ـ مجموع الروح والطبيعة (را. ف 2/ 354).

وحيث إنّ الله سبحانه هو الخالق، وله وحده قدرة إظهار الإنسان من عالم الثبوت والعدم الإمكاني إلى عالم الوجود والشهادة، يترتّب على ذلك أنه لا يكفي في الإيجادِ ازدواجُ الأبوين، بل لا بد من حركة بينهما، ولا بد أيضاً ـ وهذا هو المهم ـ من أن تتوجه الإرادة الإلهية على عين المتولد بينهما لتخرجها من العدم إلى الوجود، أي من العلم إلى العين.

ولذلك لا ينحصر صدور الإنسان عن سببين هما أبَواهُ، بل لا بدّ له من نسبة ثالثة إلى خالقه لأنه عنه ظهر وبأمره وإرادته تكوّن.. يقول **ابن عربي**: «الإنسان له نسبة إلى الجناب الأقدس، فإنّه عن قوله «كُنْ» تكوّن. وله نسبة إلى الأرواح بروحه، وإلى عالم الطبيعة والعناصر بجسمه من حيث نشأته. فهو يحبّ كلّ ما تطلبه العناصرُ والطبيعة» (ف 2/ 335).

وينتج عن هذه النسب الثلاث للإنسان أنه يستطيع أن يحبّ ثلاثة أنواع من الحبّ: يحبّ حبّاً طبيعياً عنصرياً لجهة أمه الطبيعة التي ينتسب إليها ببدنه، ويحبّ حبّاً روحيّاً خالصاً لجهة أبيه الرّوح الكلّي الذي ينتسب إليه بروحه الجزئيّة، ويحبّ حبّاً إلهياً مخلّصاً من البدن والروح، لجهة خالقه الذي ينتسب إليه بعينه الثابتة التي سمعت كلمة «كن» فظهرت للأعيان.. يقول **ابن عربي**: «إعلم أن الحب منه إلّهي وروحاني وطبيعي وما ثمة حب غير هذا» (ف 2/ 327).

ونتكلّم فيما يأتي على أنواع الحبّ الإنساني هذه:

أ ـ الحب الطبيعي:

الحبّ الطبيعي هو حبّ عام يقوم في كلّ من يقبل الصور الطبيعية، ويتّصف بما تتصف به الصور الطبيعية

من الوجد والشوق والاشتياق وحب اللقاء بالمحبوب والاتصال به. فإنّه لا يحبّه إلاّ ليتنعّم به ويلتذّ بحبّه لنفسه لا لعين محبوبه (ف 2/ 334). فالاتصال المحسوس والقرب الملموس هما غاية الحبّ الطبيعي.

ويرى **ابن عربي** أن أكثر الناس اليوم، أي في القرن السادس هجري، يتحابون بالحب الطبيعي (ف 2/ 327)، هذا النوع من الحبّ يقوم في الحيوان أيضاً لأن له نسبة إلى الطبيعة: فالبهائم تحبّ بعضها البعض حبّاً طبيعياً..

ب ـ الحبّ الروحاني:

إن من طبع الروح العطاء والإيثار، لذا عندما يحبّ إنسان إنساناً بالحبّ الروحاني يخرج عن إرادته ليريد ما يريده محبوبه، ويخرج عن صفاته ليتّصف بصفات محبوبه، يسعى للاتحاد بمحبوبه أملاً بأن تصبح ذات المحبوب هي عين ذات المحبّ. يقول **ابن عربي**: «والحبّ الروحاني هو الذي يسعى به [المحب] في مرضاة محبوبه، لا يبقى له مع محبوبه غرض ولا إرادة، بل هو بحكم ما يراد به خاصّة» (ف 2/ 327)... هذا من جهة.

ومن جهة ثانية، فإن الحبّ الروحاني لا يناقض الحبّ الطبيعي بل يحتويه، وتفسيرُ ذلك أن المحبّ حبّاً روحانياً إن كان في صورة طبيعية فهو لم يفارق طبيعته، لذلك يجمع في حبّه بين حكم الطبيعة وحكم الروح: فيحبّ محبوبه لنفسه ويريد الاتصال به، ويحبّه أيضاً له ويترك ما يريده لما يريد محبوبه. يقول **ابن عربي**: «الحبّ الروحاني هو الحبّ الجامع في المحبّ، أن يحبّ محبوبه لمحبوبه ولنفسه».

يتضح مما تقدم أن غاية الحبّ الروحاني هي الاتحاد بالمحبوب جسداً وروحاً، يتّحد معه من جهة جسده بالروح الحيواني، ويتّحد معه من جهةِ روحه بالنفس الناطقة أي الروح العاقلة. يصور **ابن عربي** في نصّ فريد اتحاد المحبّ بمحبوبه من جهة طبيعته بالروح الحيوانية، فيقول: «فغايته [أي غاية الحبّ الروحاني في الصور الطبيعية] الإتحادُ، وهو أن تصير ذاتُ المحبوب عَـيْنَ ذات المحـبّ، وذاتُ المحـبّ عـيْنَ ذات المحبوب... فإذا تعانق الحبيبان وامتصّ كلّ واحد منهما رِيق صاحبه، وتحلّل ذلك الريق في ذاتِ كلّ واحدٍ من الحبيبين، وتنفّس كلُّ واحد من الصورتين عند التقبيل والعناق، فخرج نَفَسُ هذا فدخل في جوْف هذا، ونَفَسُ هذا في جوف هذا. وليس الروح الحيواني في الصور الطبيعية سوى ذلك النفس. وكلّ نفس فهو روح كل واحد من المتنفّسين، وقد حييَ به من قبله، فصار ما كان روحاً لزيد هو بعينه يكون روحاً لعمرو [والعكس].. [وقد] عبّر عن ذلك بالاتحاد في حق كل واحد من الشخصين. وصحّ له أن يقول.. أنا من أهوى ومن أهوى أنا» (ف 2/ 334).

وهذا الحبّ الروحاني هو اختصاص إنساني لا قدرة للحيوان عليه، لأنه ميزة العقل الناطق؛ والإنسان وحده يجمع الحبّين؛ وحبّ الحيوان ليس كذلك لأنه حبّ طبيعي لا روحاني (ف 2/ 327).

ج ـ الحبّ الإلّهي

في الحبّين السابقين أحسسنا كأن العلاقة بين المحبّ والمحبوب تجري في حميمية ثنائية لا طَرَفَ ثالث بينهما. لذا، إذا سلّمنا مع **ابن عربي** بأنه من الممكن أن يحب إنسان إنساناً بالحب الإلّهي، فسوف تتفكك ثنائية المحب ـ المحبوب ويجري الحبّ في حضور الله، وهذا يدفعنا إلى بحث هذا النوع الثالث من الحبّ في الفقرة اللاحقة التي توضّح حب الإنسان لله، من منظور **ابن عربي**.

4 ـ حب الإنسان لله

ابتدأ حب جنسنا البشري لله ـ عند **ابن عربي** ـ قبل أن تخالط أرواحنا الأبدان، هناك حيث كانت أرواحنا لا تزال ذرّات مخزونة في ظهور آبائنا، أقامنا القادرُ بقدرته وخاطبنا وأجبناه.. قال تعالى: «وإذا أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذُرّيتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى» (7/ 172). أحببناه تعالى لحظة سمعت أرواحنا خطابه الإلّهي «ألست بربّكم»، وظلّت لحظة السماع هذه مغروزة في ذاكرة الروح، وأبداً تحنّ إليها أرواحنا.. وعندما أظهرنا المتعالي في عالم الأجساد والتركيب، أدركنا أن حالنا هو حال من كُوشِفَ في المنام بمقامه «العالي»، ثم أُرجِع إلى الواقع ليبدأ مسيرته من عَماء بداياتها..

يقول **ابن عربي**، مؤكّداً على سَماع ثان أكثر إفراداً من الأول وهو سَماعُ كلمة «كن»: «وأما حبنا إياه ـ تعالى ـ فبدؤه مع السماع لا الرؤية، وهو قوله لنا ونحن في جوهر العماء «كن»... فلمّا سمعنا كلامه، لم نتمكّن أن نتوقّف عن الوجود، فكنّا صوراً في جوهر العماء... فهذا كان سببَ بَدْء حبّنا إياه ـ تعالى ـ، ولهذا نتحرّك ونطيب عند سماع النغمات، لأجل كلمة«كن» (ف 2/ 331).

والسؤال الآن، ها نحن في عالم الكون والفساد فبأيّ حبّ نحبّ الله؟

هنا يمارس **ابن عربي** نقداً للتجربة الصوفيّة السابقة، ويصحّح مفاهيمها في الحبّ.. نتابعه لنرى نقده وصحيحه.

يقول **ابن عربي** بأننا نحب الله ـ سبحانه ـ بالحبّين الطبيعي والروحاني، وهذه مسألة صعبة التصوّر وتتطلب قدراً عالياً من العرفان (ف 2/ 329)، نحب الله ـ تعالى ـ بالحبّ الطبيعي أي نحبّه لنفسنا ونعبده رغبة ورهبة، ونحبّه أيضاً ـ تعالى ـ بالحبّ الروحاني أي نحبّه لنفسه ونعبده محبّة له (ف 2/ 321).

وحيث إن للإنسان نِسَباً ثلاثاً، وهذان الحبان السالفان هما نسبته للأم ـ الطبيعة أو للأب ـ الروح، تبقى نسبةٌ ثالثة هي نسبته لله. بهذه النسبة الإلّهية يستطيع الإنسان أن يحب حبّاً إلّهياً، وهو حبّ روحي خالص لا أثر له البتة على جسد الإنسان أو على روحه.

يحكي **ابن عربي** عن حبه لله بالحب الإلّهي، مشيراً إلى أن الحب الذي يحكم على طبيعة الإنسان أي على جسده هو حب طبيعي، والذي يحكم على جسده وروحه هو حب روحاني، والثالث الذي لا أثر له في الشاهد، لا على الجسد ولا على الروح، هو حبٌّ إلّهي، وهو حب العارفين، يقول:

«والله، إني لأجد من الحب ما لو وُضع في ظني على السماء لانْفَطَرَتْ، وعلى النجوم لانْكَدَرَتْ، وعلى الجبال لَسُيِّرَت... لكن قواني الحق... والحب على قدر التجلي، والتجلي على قدر المعرفة. وكل من ذاب فيها [أي في المحبة]، حيٌّ لا يموت، روح مجرّد لا خَبَرَ للطبيعة بما يحمله من المحبة، حبه إلّهي وشوقه ربانيّ، مؤيد باسمه القدوس عن تأثير الكلام المحسوس. برهان ذلك، هذا الذي ذاب حتى صار ماء، لو لم يكن ذا حب ما كان هذا حاله. فقد كان محباً ولم يَذُبْ حتى سمع كلام الشيخ، فثار كامِنُ حبّه، فكان منه ما كان، فحُبٌّ لا حُكْمَ له في المحبّ حتى يثيره كلامُ متكلم [هو] حبٌّ طبيعي، لأن الطبيعة هي التي تقبل الاستحالة والإثارة... فلو كان [المحب] إلّهيٌّ الحب ما أثّرت فيه كلمات الحروف، ولا هزّت روحانيته هذه الظروف... فالمحب الإلّهي روحٌ بلا جسم، والمحب الطبيعي جسم بلا روح، والمحب الروحاني ذو جسم وروح...» (ف 2/ 346 ـ 347).

وهكذا يصنّف **ابن عربي** أنواع الحب بالنظر إلى آثاره، فحين يظهر أثَرُ الحب على جسد المحب نعلم أنه يحب بالحب الطبيعي، وحين تَفْنَى روحُ المحب من وطأة الحب وينعكس فناؤها على الجسد نعلم أنه يحب بالحب الروحاني، وحين يبقى المحب صاحياً شاهداً على كونه محلاً للمحب والمحبوب نعلم أن حبه إلّهي..

ويصور **ابن عربي** واقع العارف عندما يحبّ، وكيف أن الغيرة الإلّهية لا تقبل المشاركة، فيتجلّى الحقّ للعارف المحب في عين كل محبوب وكل مطلوب.. كلام **ابن عربي** هذا، يدفعنا إلى طرح مسألة تكاثرت حولها الأقاويل، وهي حب شيخنا الأكبر **لنظام بنت مكين الدين**؛ بأي حبّ أحب **ابن عربي** الفتاة العذراء الهيفاء، البديعة ظاهراً وباطناً؟ وهل يحب الإنسان إنساناً بالحب الإلّهي، حباً مجرداً عن الجسد والروح؟

يقول **ابن عربي** حاكياً عن الغيرة الإلّهية، وتجلّي الحق في الصور، لينقل الإنسان من حب إلى حب أعلى، إلى حيث يعرف العارف أن المحب هو المحبوب:

«فلما رآها الحقُّ [أي لما رأى الحقُّ النفسَ الناطقة].. وقد جمعت بين الحبين [الطبيعي والروحاني]، وهو ـ تعالى ـ قد وصف نفسه بالغيرة، فلم يرد المشاركة، وأراد أن يستخلصها لنفسه فلا تحب سواه، فتجلّى لها في صورة طبيعية، وأعطاها علامة لا تقْدر على إنكارها في نفسها... فعلمت أنه ـ تعالى ـ هو هذه الصورة، فمالت إليه روحاً وطبعاً. فلما مَلَكها، وعلم أن الأسباب لا بد أن تؤثر فيها من حيث طبيعتها، أعطاها علامة تعرفه بها. ثم تجلّى لها بتلك العلامة في جميع الأسباب كلها، فعرفته، فأحبت الأسباب من أجله لا من أجلها، فصارت بكلها له لا لطبيعتها ولا لسبب غيره، فنظرتْه في كل شيء، فَزَهَت وسُرّت ورأتْ أنها فضلت غيرَها من النفوس بهذه الحقيقة. فتجلّى لها في عين ذاتها الطبيعية والروحانية بتلك العلامة، فرأت أنها ما رأته إلا بنفسها، وما أحبته إلا به لا بنفسها؛ فهو الذي أحب نفسه ما هي أحبته، ونظرت إليه في كل موجود، بتلك العين عينها، فعلمت أنه المحب والمحبوب، والطالب والمطلوب...» (ف 2/ 331).

في كون يتجلى فيه الله بأسمائه في أعين المحبوبات والمطلوبات، يصبح الكلامُ على حب إنسان بالحب الإلّهي ممكناً.. لأن الله سبحانه ـ بحسب نصوص **ابن عربي** ـ هو الظاهر في كل محبوب لعين كل محب. فما أحبّ أحد غير خالقه، ولكن احتجب عنه تعالى بحب زينب وسعاد وهند وليلى، والدرهم والجاه، وكل محبوب في العالم.

لقد أفنى الشعراء كلامهم في الموجودات وهم لا يعلمون، ولكن العارفين لم يسمعوا شعراً ولا تغزلاً إلا في الله من خلف حجاب الصور. فمن أحب كائناً لجماله أو لإحسانه فما أحب على الحقيقة إلا الله. هو وحده تعالى المحسن الجميل. فعلى كل وجه لا تتعلق

المحبة إلا بالله (ف 2/ 326).

وهكذا تأخذ محبوبة ابن عربي، نظام، قيمتَها عنده من كونها تَجلّيَ للحق.. فالحب الإلّهي، بخلاف الطبيعي [الذي يطلب الاتصال المحسوس] والروحاني [الذي يطلب الاتحاد بالمحبوب] لا يتجلى في علاقة ثنائية بين محبّ إنساني ومحبوب إنساني بل تصبح فيه علاقة الإنسان بالإنسان شفافة بالحضور الإلّهي القيّوم.

5 ـ حب الله للإنسان

إن كلمة حب تثير في ذاكرتنا تاريخ العشق والشوق والتغزل والتعفف، توحي بدِفء حميميةِ المشاعر الجوانية، إلا أن هذا المصطلح يعني لابن عربي: إرادة الإيجاد... لذا نقول إن فلسفته تربط الحب بالإيجاد، إنه عندما يقول: بأن الله يحب الإنسان، فهو يعني: أنه يريد إيجاده، يريد إخراجه من العدم إلى الوجود الظاهر. وعندما يقول، بأن الحب هو سبب الوجود وأصله، فهذا يشير إلى إرادة الله بأن يُعرف، وأن تظهر آثار أسمائه في الوجود، والمنصوص عليه في الحديث القدسي بقوله: «كنت كنزاً مخفياً أحببت أن أعرف».. الحب، إذن، هو إرادة الإيجاد. لذا ـ كما تقدم ـ لا يتعلق إلا بمعدوم.

ونتساءل متى بدأ حب الله للإنسان؟ وهنا يحضرني قول لأبي يزيد البسطامي، اعترف بأن فيه الكثير من العرفان، يقول «غَلِطْت في بداياتي في أربعة أمور: توهّمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته سبقت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي أولاً حتى طلبته».

فالحب الإلّهي للخلق، على ما يرى ابن عربي سليل الروحانيين الكبار، لا بداية له، لأن الوجود الإلّهي لا أول له ولا بداية. والله سبحانه لم يزل محباً لخلقه ولا يزال، وتوجيهه إرادته الحبية على فعل الخلق هو إعلان عن هذا الحب.

وحيث إن الخلق عند ابن عربي ليس فعلاً حدث في الماضي وانتهى، بل هو متجدد ويحدث في كل آن، كذلك حب الله ليس من الماضي بل هو من الحاضر يتجدد مع الأنفاس... فالحبُ خَلْقٌ والخلق حب.

إن لحظة الخلق هي لحظة الحب، وهي متجددة في كل آن، وهي النسبة الوحيدة بين الإنسان والله. بل غاية الوصول في الحب الإلّهي هو فعل الخلق، حيث يكون المخلوق هو المظهر الذي يظهر فيه الحق.. وهكذا ترجع نظريته في الحب لتصب في فكرته المحورية وهي وحدة الوجود التي لا ترى في الكون إلا الله وتجليات أسمائه وصفاته، الله الواحد المتجلي دون انقطاع...

وإذا تتبعنا ربط ابن عربي للحب بالإيجاد في عالم الإنسان، نرى أنه يكشف عن قدرة الحبّ على الإيجاد، فالحب طاقة خلق وإبداع، والمحب من جنس المخلوقات إذا قويت محبته أوجد... ويستطيع المحب أن يُخرج صورة محبوبه الموجودة في أعماقه، بحيث يراها بعينه خارج ذاته، ويتمّ له ذلك إما بواسطة أنفاسه أو بواسطة قوة خياله، يقول ابن عربي عن الحالة الأولى: «عندما يحصل الهوى يقع التنفس والتنهد، فيخرج النَفَس بشكل ما تصور في نَفَس المحب من صورة المحبوب، فيُظهره صورة من خارج يشاهدها. فيحصل له مقصوده ونعيمه بها من غير زمان» (ف 2/ 332 ـ 333).. أما عن الحالة الثانية، وهي تصوير المحبوب بقوة الخيال، فيقول راوياً عن نفسه: «ولقد بلغ بي من قوة الخيال أن كان حبي يجسد لي محبوبي من خارج عيني، كما كان يتجسد جبرائيل لرسول الله (ص) فلا أقدر أن أنظر إليه، ويخاطبني وأصغي إليه وأفهم عنه» (ف 2/ 325)..

ابن عربي هذا يتابع نَهج المتصوفة في رؤيتهم الإنسان على أنه إرادة ومريد.. الإرادة حب وخلق واتصال.. ولن ندخل في حوار مع الشيخ الأكبر حول هوية المحبوب «المقدس» الذي يتجسد بقوة الخيال فلا يقدر أن ينظر إليه وإنما يسمعه ويفهم عنه.. كما لن نطرح جدوى هذا التجسيد للمحبوب وعلاقة الصورة بالأصل، وفتح الحياة على عوالم مخلوقة بالخيال...

بل نقول، ختاماً، إن ابن عربي يعلن أن الله يحب الإنسان، حباً قديماً أزلياً أبدياً، أصلياً لا يجرحه شقاء أو إبعاد.. ومن حبه للإنسان وللعالم، أن جعل الكل عابداً شاهداً مسبحاً تسبيحاً فطرياً من غير تكليف، فالحَجَرُ والشَجَرُ يسبّحان، والإنسان، وإن عاند بقوته المفكرة، إلا أن جسده يسبّح بعبادة ذاتية ونحن لا نفقه تسبيحه..

وكما كانت المحبة الإلّهية في البداية سببَ الخلق، فإنها ستكون في النهاية سبب النعيم.

ونحن اليوم، أحوج ما نكون إلى رؤية جمالية نورانية تغمر الكون من أقصاه إلى أقصاه بدفء رباني... رؤية تسكن منابع الخوف فينا، وتساعدنا على ألاّ نحزن لأن من بيده ملكوت كل شيء يحبنا.

د. سعاد الحكيم

[الجامعة اللبنانية]